



59

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس عشر

مسألة الركود العربي

2. آراء ناقدة

ثمة دارس عربي آخر للحالة العربية، وهو ادوار عطية. كان أكثر تصريحاً في تشخيصه للوضع الفكري العربي قبل وقوع اختراق التأثيرات الغربية. فهو يرى أنه لغاية عام 1798 حينما وضع نابليون قدمه على أرض مصر:

كان العرب لا يزالون يعيشون في العصور الوسطى في حياة يسودها التصلب الاجتماعي والفكري، حيث فقدوا بالتدرج القدرة على التفكير للدخول إلى حقول جديدة من التحديات والاكتشافات¹.

و«بدا كما لو أن العقل المسلم أصابته حالة من السكون». بحسب تعبير حتي، وبقي الفكر العربي مقيداً لقرون «بسلاسل لم تتزعزع إلا في عصرنا هذا»² إن أمثال هذه التقييمات يصادفها المرء مرة أخرى في كتابات المؤرخين العرب، حتى أن بعض مروجي البروباغندا، فايز الصايغ، يتحدث عن «الركود الروحي» للعرب، ويصف ما حدث لهم خلال القرون الأربعة الماضية بطريقة تغلب عليها المازوكية: حيث يقول:

إن الركود الروحي الذي ساد المشهد العربي وشل الروح العربية منذ نهاية العصر العربي الكلاسيكي، ووصل إلى ذروته في ظل الحكم العثماني الذي دام 4 قرون، اهتز في البدء بالاضطرابات التي حدثت في القرن التاسع عشر والتي عرفت في ما بعد بالنهضة العربية.

(1) ادوار عطية: العرب، ص73.

(2) فيليب حتي: العرب... تاريخ موجز: ص128-129. وفي الصفحات (212-213) يعزو حتي ركود العرب إلى سلطة الأتراك المتعسفة وضرائبهم المرتفعة.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

ولعدة قرون، «انحدر العرب إلى حافة التاريخ. وعاشوا وتحركوا في بصيص من الوجود واللاوجود». ولم يتغير هذا الوضع إلا في عصرنا «وللمرة الأولى منذ ظهور الإسلام» انهمك العرب في «بحث عن الوجود... عن التاريخ... عن الكرامة». وتعبر هذه النهضة عن نفسها بعدة أمور من بينها البحث عن «أنماط جديدة لتنظيم محل النظام شبه الإقطاعي المتداعي والبنى القروية والعائلية الأيلة إلى التفكك». ويرى صايغ أن «التقاليد الحالية» في الحياة العربية ما هي إلا «تراث قرون من الحكم أو اللاحكم الأجنبي»: أما في ما يتعلق بالمبادئ والمؤسسات الديمقراطية الغربية الجديدة، فيرى صايغ أن العرب يتبنون حالياً منها الشكل الخارجي فقط. وبالرغم من أن العرب «يسعون إلى إحياء وإعلاء العناصر التقليدية القديمة المتناغمة مع النموذج الديمقراطي للحياة» فإنه «ينظر إليها باعتبارها بضاعة مستوردة، إن لم تكن مفروضة... ويراها فاشلة شأنها شأن أي رداء ليس بالمقاس المناسب، فلا أهمية لشكله مهما حسن». وفي ما يخص الأديان التقليدية العربية (الإسلام، والمسيحية عند الأقلية)، يرى صايغ بأنها:

تقلصت إلى كلمات فارغة مكررة، وانحدر الانتماء الديني إلى تجمعات بدائية تنتج التعصب الأعمى لا الالتفاف التنويري، وتحفيز صلة البحث عن المصلحة الذاتية لا الولاء التضحي، وتخدم أهدافاً سياسية محددة لتخريب الوحدة الوطنية عوضاً عن الإعلاء من شأن التجربة الروحية الذاتية الخلاقة المليئة بالمرح والمحبة¹.

في عام 1953، العام ذاته الذي ظهر فيه منشور فايز صايغ السابق الذكر، ألفت نجلاء عز الدين كتاباً بعنوان (العالم العربي: الماضي، والحاضر، والمستقبل)، وناقشت فيه القضية السابقة ذاتها. فرأت بأن العصر الذهبي (ق7-ق13) «تلتها فترة طويلة من الركود لم يقتصر فيها العرب على الانتظار وإنما فقدوا التواصل مع القيم الخلاقة والتحريرية في تقاليدهم الخاصة بهم...» ومن بين العوامل التي أدت إلى هذا الركود تشير الكاتبة إلى الغزو المغولي في منتصف القرن الثالث عشر؛ والطاعون الذي انتشر مرتين في العالم الإسلامي خلال

(1) فايز صايغ: فهم العقل العربي: ص27-29.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

القرن الرابع عشر؛ والموجة الثانية من التوسع المغولي في نهاية القرن الرابع عشر؛ ثم تتابع قائمة:

لكن الأكثر تدميراً من المحن القادمة من الخارج كان جفاف الروح الخلاقة المغامرة ضمن المجتمع العربي نفسه. إن الفضول الفكري المتحمس الذي ميز الفترة السابقة، والبحث الدؤوب المتوقد عن المعرفة، وامتعة المغامرة كانت كلها قد دفنت تحت غلاف قاس من الآراء المتغطرسة والأصولية. لقد أقصي الفكر الحر، وحلت محله الأفكار التقليدية¹.

ويعد الولع بالماضي من مظاهر الاتجاه التقليدي العربي. ويوضح الكاتبان نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين ذلك بالقول:

وفق بعض الاعتبارات يميل شغف العرب بالأيام الخالية إلى أن يكون مرضاً مزمناً. وهو ينشأ على نحو طبيعي من البؤس العام الذي يعيشه غالبية الناس والأوضاع الاقتصادية والسياسية المأساوية التي سادت منذ سقوط الإمبراطورية العباسية والدول العربية في إسبانيا وشمال أفريقيا. إنهم يعيشون في ماضٍ رائع للهروب من حاضرٍ بئيس.

ثم يمضي الباحثان إلى وصف النفسية المشتركة التي تميز العرب قائلين:

حتى نهاية القرن الثامن عشر، كان العالم العربي في حال أقرب إلى الركود والانعزال والرضى بظروفه الراهنة والقبول بما قدر له والجهل التام بالأحداث المستجدة حوله. ثم جاء الغرب فاتحاً إلى العالم العربي، وأحضر معه ثقافته وحضارته وعلومه وبعثاته التبشيرية وقيمه الأخلاقية ومفاهيمه وبضائعه التجارية وسيطرته السياسية والاقتصادية والعسكرية.

(1) نجلاء عز الدين: العالم العربي... الماضي والحاضر والمستقبل: ص 57-58.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

ويلاحظ الكاتبان أن «المجاعة الثقافية التي دمرت الحياة العربية ليست، في الواقع، أمراً طارئاً، وليست كذلك نتيجة لما اقترفته يد الحكم الاستعماري وجشع الإقطاع والاضطهاد المحلي فحسب» وإنما «ترجع جذورها إلى بعيداً في أعماق تاريخ الشعب العربي». ويشير الكاتبان إلى المنزلة المتدنية التي وضع فيها المجتمع العربي نساءه، وعدا ذلك من العوامل المهمة التي ساهمت في تشكيل وضعه الحالي المؤسف. ويضيف الكاتبان: «فلا عجب من بقاء العالم العربي متخلفاً مقيداً بالتقاليد يمشي بخطوات عرجاء للحاق بركب التقدم البشري، وذلك عندما تكون منزلة النساء لديه بهذا التدني».

ويذهب بعض الكتاب العرب أبعد من ذلك، فيقرون بحقيقة انحطاط العرب وركودهم، ويفسرون بذلك تمكن أمم الغرب من إركاع العرب: ومن هنا يفترض الكاتب الإسلامي الجزائري مالك بن نبي في كتابه رسالة الإسلام أن سبب تعرض العرب للاحتلال الفرنسي يعود في جزء كبير منه إلى أن الثقافة العربية لم تعد خلافة وفقدت القدرة على الدفاع عن نفسها.

ثم جاء محجوب بن ميلاد، وهو زميل لمالك بن نبي من تونس، ليطور فكرة الركود العربي بتفصيل أكبر. وفي إحدى كتاباته، وبعد أن يشير أولاً إلى المجد الماضي للعرب ويعدد «الخالدين» من ذلك العصر، ينتقل إلى شجب تراث الانحطاط العربي فيقول مع أخذ تونس بعين الاعتبار:

إذا كان الشرق معناه ما ورثناه من قرون الانحطاط. أي: حماقة الإيمان الأعمى بالسلطة، الأفق الضيق، قصر النظر، الجبن في مواجهة الواقع وإهمال قوانينه، الهروب من المسؤوليات، ووحدة التوجه الفكري، فإن «تونس الجديدة» ليست من الشرق ولا الشرق منها¹

(1) محجوب بن ميلاد: تونس بين الشرق والغرب: ص22.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

وهناك الكثير من المؤرخين والمحللين الاجتماعيين والمثقفين العرب ممن تشهد كتاباتهم على التقبل الكامل لفكرة الركود العربي؛ إذ حظي هذا المفهوم بالقبول والفهم من قبلهم وأصبح يشار إليه في أوساطهم كحقيقة تاريخية لا جدال فيها. بل إنهم قدموها بشكل نمطي متحيز؛ ونجد ذلك في كتابات إسحاق الحسيني. وهو مفكر فلسطيني وأستاذ للأدب العربي. حيث يعبر عن هذا المفهوم بعبارة «العصر المظلم الطويل المضي». وعندما تأتي هذه العبارة الواقعية من قلم كاتب عربي مسلم. وإن كانت مهذبة الألفاظ. فهذا يعني أن الأمر قد تغير عما كان عليه حين كانت مثل هذه العبارة أمراً لا يمكن تخيله.